

شرح قصيدة أبي العلاء المعري تأملات في الحياة والموت

تُعدّ قصيدة تأملات في الحياة والموت للشاعر العباسي أبي العلاء المعري من أجمل القصائد التي كتبت في العصر العباسي الثاني، وفيما يأتي سوف نسلط الضوء على أشهر أبيات هذه القصيدة وسوف نقوم بشرح هذه الأبيات:

- عَيْرٌ مُجْدٍ فِي مِلَّتِي وَإِعْتِقَادِي // نَوْحُ بَاكَ وَلَا تَرْتَمُ شَادٍ
صَاحَ هَذِهِ قُبُورُنَا تَمَلُّ الرُّحْدَ // بَ فَايْنَ الْقُبُورُ مِنْ عَهْدِ عَادٍ؟
حَقَّفَ الْوُطْءَ مَا أَظُنُّ أَدِيمَ الدِّ // أَرْضُ إِلَّا مِنْ هَذِهِ الْأَجْسَادِ
وَقَبِيحٌ بِنَا وَإِنْ قَدَّمَ الْعَهْدَ // لُ هُوَانُ الْأَبَاءِ وَالْأَجْدَادِ

في هذه الأبيات الأولى من هذه القصيدة يتحدث المعري عن فكره وفلسفته التي يؤمن بها في الحياة والموت، وهي آراء ذاع صيتها وانتشرت عن المعري وصار معروفاً بها، فيتساءل عن القبور السالفة التي دُفن فيها الناس منذ عهد عاد إن كانت هذه قبورنا، وهذا تساؤل يعرض فكرة وهي أنّ الجميع سوف يفنى حتّى القبور بعينها سوف تفنى، ثم يقول لا تهلك نفسك بالتفكير في هذه الحياة، فأديم الأرض هذا الذي نراه هو من أجساد البشر، فالأرض مقبرة للناس منذ آلاف السنين وهذا هو عملها الحقيقي،

- سِرٌّ إِنْ اسْطُغْتِ فِي الْهَوَاءِ رُوَيْدًا // لَا اخْتِيَالًا عَلَى رُفَاتِ الْعِبَادِ
رُبَّ لُحْدٍ قَدْ صَارَ لُحْدًا مِرَارًا // ضَاخِكُ مِنْ تَزَاخُمِ الْأَضْدَادِ
وَدَفِينِ عَلَى بَقَايَا دَفِينِ // فِي طَوِيلِ الْأَزْمَانِ وَالْأَبَادِ
فَاسْأَلِ الْفَرَقْدِينَ عَمَّنْ أَحْسَا // مِنْ قَبِيلِ وَأَنْسَا مِنْ بِلَادِ
كَمْ أَقَامَا عَلَى زَوَالِ نَهَارِ // وَأَنَارَا لِمُدُلُجِ فِي سَوَادِ
تَعَبَ كُلُّهَا الْحَيَاةَ فَمَا أَعَدَّ // جَبَّ إِلَّا مِنْ رَاغِبٍ فِي زِدْيَادِ

ثم يتحدث الشاعر في هذه الأبيات ويخاطب الناس أجمعين؛ فيقول: سيروا في هذه الحياة من دون اختيال ولا تكبر، فإنكم تسيرون على رفات من قبلكم وسوف يسير من سيأتي بعدكم على رفاتكم، فالقبور كلها قد صارت قبورًا مرارًا وتكرارًا، وكم القبر يضحك في كل يوم من تزاحم الناس الذين يمرون عليه ومن اختلاف طبائعهم.

وكم هناك من رجل دُفن على بقايا دفين قبله على مدى هذه الأعوام والقرون التي مرت على البشر، فاسأل النجوم كم مر عليها من بشر وبلاد وكم أضاءت في الليالي طريق الناس، فهذه حياة مليئة بالتعب، وليس في الدهر عجب أكثر من العجب الذي يكون من الراغب في هذه الحياة والساعي إليها والطامح والطامع فيها.

- إِنَّ حُزْنَآ فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ أَضْعَا // فَ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ
خُلِقَ النَّاسُ لِلْبِقَاءِ فَضَلَّتْ // أُمَّةٌ يَحْسِبُونَهُمْ لِلنَّفَادِ
إِنَّمَا يُنْقَلُونَ مِنْ دَارِ أَعْمَا // لِي إِلَى دَارِ شَقْوَةٍ أَوْ رَشَادِ
ضَجْعَةُ الْمَوْتِ رَفْدَةٌ يَسْتَرِيحُ الدُّ // جِسْمٌ فِيهَا وَالْعَيْشُ مِثْلُ السُّهَادِ

يقول الشاعر إنّ الحزن الذي يملك الناس على موت أحدهم أضعاف السرور الذي يشعرون به إذا ولد أحدهم، ومع هذا فإنهم يستمرون في إنجاب الأبناء ويستمرون في صنع الفرح القليل والحزن الكثير، وقال إنّ الناس يظنون أنهم يُخلَقون للبقاء ولكن في الواقع إنهم يُخلَقون ليسيروا نحو الفناء، وإنهم سوف يُنْقَلُونَ في يوم من الأيام من دار الأعمال إلى دار الشقوة، ثم يقول إنّ رفدة الموت هي الاستراحة الحقيقية من سهاد العيش وتعب الحياة.

- بَانَ أَمْرُ الْإِلَهِ وَاخْتَلَفَ النَّأ // سُنْ فِدَاعٍ إِلَى ضَلَالٍ وَهَادِ
وَالَّذِي حَارَتِ الْبَرِيَّةُ فِيهِ // حَيَوَانٌ مُسْتَحَدَّتْ مِنْ جَمَادِ
وَاللَّبِيبُ اللَّبِيبُ مَنْ لَيْسَ يَعْتَرُّ // بِكُونِ مَصِيرِهِ لِلْفَسَادِ

ثم يقول الشاعر إنّ أمر الله تعالى واضح في هذه الحياة ولكنّ الناس مختلفون فيه على الرّغم من وضوحه، فالناس منقسمون بين من يدعون إلى الضلال ومن يدعون إلى الهدى، ثم يختم بقوله إنّ العاقل في هذه الحياة هو الشخص الذي لا يفتّر ولا يتأثر عندما يدرك ويرى بأمر عينه أنّ مصير هذا الكون نحو الفساد لا محالة.